إشكاليةُ الوعيِّ المنهجيِّ لدى الباحثينَ بالدراسات العليا «الماجستير»

أ.د.عبد المجيد بنجلالي

■ عندما استوعبَ أبو العلاءِ المعرِّي كُنهَ الإيقاعِ الموسيقيِّ للعَروضِ العربي، لم يبْقَ مُعتكِفًا وساجدًا أمامَ محرابه، مُصَفَّدًا بأغلالِه؛ وإنَّما انطلقَ ليحلقَ في أجوائِه، ويعْرجَ به إلى ما يعرفه الجميعُ مما ألزمَ به نفسَه، ومما سطَّرَه في مقدمتِه الفلسفيةِ الشهيرةِ لسقطِ الزِّندِ وضوءِ السّقط. أين هو المنهجُ؟ أ هو المنهجُ المتعارفُ عليه نظريًّا وفلسفيًّا؟ أم هو المنهجُ المستخلصُ من طبيعةِ الموضوع؟ أم هو الباحث نفسُه؟ يتطلعُ الباحثون لمؤمنون بالتطويرِ والتحديثِ في مجالِ العلوم الإنسانية اليومَ إلى النظرِ بعيدًا في ما ورائياتِ فلسفةِ المناهج، وفِي النَّصِّ العولميِّ الجامع، وفي النصِّ الموازي، ونحن لا نزالُ مخلصينَ في البحثِ لمناهجَ أثبتت جدارتها في النصفِ الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن الماضي. ويبدو بالواضحِ لا بالمرموز، أنها أنهتْ مهمَّتَها، واستسلمت لأشكالٍ جديدةٍ من الإبداعِ يتطلبُ البحث فيه عن وسائلَ جديدةٍ لاختراقِه وتطويعِه. بقيَ منهجُ لانصون (ظهر بفرنسا) الذي يجمعُ بين القراءةِ التاريخيةِ والمقاربةِ الفنية سائدًا في الدرسِ الأكاديمي الجامعي، ومنه اغترف طه حسين، والعقاد ومحمد مندور، وغيرُهم كثير . وفي الربعِ الأخيرِ من القرنِ الماضي هيمنت مجموعةٌ من المناهجِ المعاصرةِ كالبنيوية اللسانية، والبنيوية التكوينية، والمنهجِ السيميولوجي، وجماليةِ القراءة، والمقاربةِ التداولية، ولسانياتِ النَّص، والتفكيكية. وهذه المناهجُ تمَّ تجاوزها في الغرب لفائدةِ المقاربةِ النصيةِ بقيادةِ مجموعةٍ من المنظرين البويطيقيين "POETIQUE"، والسيميائيين، نذكر منهم على وجه الخصوص : جيرار جنيت"G.GENETTE"، ورولان بارت، R.BARTHES، وليو هويك "LEO HOEK"، وشارل ري؟ل "CH.GRIVEL" وجاك دريدا J.DERRIDA"، وغيرهم. وإذا كانَ المنهجُ طريقًا يَبَسًا ومُعبَّدًا، أو إطارًا صارمًا لا يقبلُ صرْفًا ولا عدلًا، فلماذا تختلفُ وتتفاوتُ البحوثِ التي تتكررُ على يدِ أكثر من باحثٍ، وإن كان المنهجُ واحدًا وموحَّدًا؟ فهل المنهجُ هو الذي ينقلُ البحث من جزْرٍ هادِئٍ، وراكدٍ إلى مدٍّ مُتموِّجٍ وهائج؟ أمْ أنَّ النصَّ، أوِ الموضوعَ هو الذي يخلخلُ بمادتِه السُّننَ المؤكَّدةَ للمنهج، ويعملُ على تفعيلِها وإعادةِ ترتيبِها، أم أنَّ الباحث يشكلُ الجسرَ الذي يتدخلُ بين المنهجِ والموضوعِ؛ ليخلقَ منهجًا يجمعُ فيه بين الشبكةِ المعرفيةِ للمناهج، وما يرتبط بذلك من ملاحظاتِه وتأملاتِه في الموضوعِ الماثلِ أمامَه، وما يتولدُ عن ذلك من ملاحظاتٍ تصبحُ من أهمِّ المرتكزاتِ المنهجية؛ لأنَّها ناتجةٌ ومشتقةٌ من واقعِ نصيٍّ؟ بهذه التساؤلاتِ أكونُ قد فتحتُ ثلاثَ جبهاتٍ: جبهةَ المنهج، وجبهةَ البحثِ، وجبهةَ الباحث، وسأقتصرُ على جبهةِ الوعيِ المنهجيِّ الذي يشكل الواجهةَ الخلفية لكلِّ منهج. إن الوعيَّ المنهجيَّ هو إدراكٌ عميقٌ لكُنْهِ الشَّيء، **وهو بعيدٌ كلَّ البعد عمَّا يمكنُ أن يتصورِه الباحثُ من أنَّ البحثَ العلميَّ** هو عمليةٌ آليةٌ محضةٌ تقتضي الاطلاعَ على تقنياتِ المنهج، ونقلها مباشرةً إلى تربةِ النصِّ؛ إذ لو كان الأمرُ كذلك لكان كلُّ الناسِ باحثين بدرجةٍ متساويةٍ. فأين يكمنُ الفرق؟هذا ما سنعملُ على توضيحِه من خلالِ رصدٍ لبعضِ سماتِ الوعيِّ المنهجي. أوَّلُ سمةٍ من سماتِ الوعيِّ المنهجي هي ألا نحنِّط المناهج، وندعَها راكدةً في توابيتها، نعتبرُ بها، ونتملى بطلعتها، وألاَّ نتعاملَ معها بقدسيةٍ مؤَلَّهة، وألاَّ ننبهرَ بها إلى حدِّ الولهِ، والخبَل، والجِنّة... ففي مثلِ هذه الحالاتِ السالبة، يُصابُ البحثُ العلميُّ بعاهاتٍ مستديمةٍ؛ نتيجةَ ما ذُكر، وما لم يُذكر. ومن أهمِّ مظاهرِ هذه العاهات أنَّ الباحث الذي ينبهرُ ببريقِ منهجٍ واردٍ دون وعيٍ بخلفيةِ المعرفية، قد يُوفقُّ بنسبةٍ عاليةٍ في الإنجاز؛ لكن بعد سنواتٍ قليلةٍ سيجدُ أن جهودَه ذهبتْ سدًى، وأنَّ القارئَ ألقى بهذه الجهودِ وراءَه ظِهْريًّا، لا لعيبٍ في هذه الدراسة؛ ولكن لأنَّ البحث ارتبط بمنهجٍ ولى وأدبر، ولم يُعد له بريقٌ في عالم المُثُل المنهجية. وتستمدُّ السِّمةُ الثانيةُ من سماتِ الوعيِ المنهجي شرعيتَها من السؤالِ الآتي: ما هي استراتيجيةُ الباحثِ في البحث؟ فإذا كان هدفُ الباحثِ واضحًا في أنَّه يراهنُ ببحثِه على(الإسهامِ) في تقدُّمِ المعرفة؛ هنا يكون المنهجُ المرشدَ المُعينَ، ونعمَ النصير، أمَّا إذا لم تكن الاستراتيجية واضحة؛ فإنَّ ما يحصلُ– في الغالب– هو أن تتحوَّلَ نظرةُ الباحثِ من رؤيةٍ تقدُّميةٍ وأمامية، إلى خطوةٍ خلفية؛ أي إنَّ البحث يأتي فقط ليخْدُمَ ويُكرِّسَ المنهج، وسلوكُ هذا الطريقِ– وهو الغالب مع الأسف– يُهلِكُ الحرثَ والنَّسل، ويجعلُ البحث مُتخَمًا بعناوينَ رئيسةٍ وفرعيةٍ للفقرياتِ التي يتشكَّلُ منها الهيكلُ العظميُّ للمنهجِ الذي ينحرفُ عن مسارِهِ من وسيلةٍ إلى غاية. السمةُ الثالثة: لنفرضَ جدلًا أنَّ الباحث وعى واستوعبَ الجوانبَ المحيطةَ بالمنهج، وأدركَ كلَّ ما هُو مُقبلٌ عليه؛ فهل يُعدُّ ذلك كافياً لكي يؤدِّيَ الباحثُ مهامَّه بعد الاطمئنانِ إلى النسبةِ العاليةِ للارتواءِ والتشبُّع المنهجي؟ لا يُعدُّ ذلك كافيًا ما لم تتوافرْ مجموعةٌ من الشروطِ والمواصفات يتربعُ على عرشِها ما يأتي:

أولاً: أن يكون هناك اهتمامٌ شخصيٌّ من قِبَل الباحث، وهو اهتمامٌ يجدُ فيه لذَّةً، ومتعةً، ودافعًا وحافزًا للبحث.

ثانياً: أن يُذيَّلَ هذا الاهتمامُ بقُدرةٍ على الإنجاز، وإلاَّ فإنَّ صرحَ البحثِ سينهدُّ؛ لأنَ القدرة تستدعي رصيدًا معرفيًّا لا يمكنُ أن يكون وحْيًا من السماء، ولا وليدَ حصادِ موسمٍ دراسيٍّ واحد؛ وإنما يأتي نتيجةَ تراكمٍ إبستيمولوجي لِسنينَ خلت.

ثالثاً: أن يكون الباحثُ مُمتلكًا لمجموعةٍ من المبادئ الأساسيةِ لمنهجِ البحث تقودُه رأسًا إلى رؤيةٍ بصريةٍ للموضوعِ حتى وإن كانت الرؤيةُ عسيرة. الأساسُ، أن تكون هناك نسبةٌ واضحةٌ لهذه الرؤية؛ فالذي يتخيَّلُ أو يتصورُ أن البحثَ العلميَّ هو أن يُسجِّلَ الموضوع، ويضعَه في قِمطرٍ أو دُرْجٍ، ثمَّ ينصرفَ زمانًا للاطلاع على المناهج، ثمَّ يعُود بعد انقضاءِ عِدَّةِ القراءة، فهو واهِم؛ إذ عليه أن يعملَ على تقريبِ المسافةِ بينه وبين البحثِ العلمي.

ولن يتمَّ ذلك إلاَّ بالوعي المنهجي؛ فبهذا الوعي فقط، يمكنُ للباحثِ أن يهتِكَ الحُجبَ المستورةَ التي تحولُ بينه وبين ما يريدُه هو نفسُه من البحث.

السمةُ الرابعة: أنَّ المنهجَ هو آليةٌ ووسيلةٌ لتفكيكِ الخطاب، والكشْفِ عمَّا خفيَ حتى على المُبدع نفسِه، ولم لا يُصبحِ المنهجُ خطابًا على خطاب؛ بحيث يُشكل الخطابُ الثاني (البحثُ) جزءًا من الخطابِ الأول (المنهج). إن لحظةَ الذروةِ في البحثِ هي عندما يحصلُ تآلفٌ واندماجٌ والتحامٌ بين الخطابين: خِطابِ المنهج، وخطابِ النَّص؛ وإلاَّ فالبحث يصبحُ نشازا يَعْلُوه التنافرُ والتَّضاد.

وبصيغةٍ أخرى: إنَّ البحثَ الناجحَ هو الذي يوفرُ شروطَ إمكانيةِ الإبداع بالمنهجِ داخلَ هذا التعالقِ بين مادَّته الخامِ (المتن/المدوّنة)، والمهارةِ في صياغة هذه المادَّة (المنهج).

السِّمةُ الخامسة: هناك (موضةٌ) يتبناها كثيرٌ من الدارسين في ركوبِهم "المنهجَ التكامليّ" أو المتكامل. فتبنِّي هذا المنهجَ (وهو منهجٌ غيرُ موجودٍ على مستوى التقعيد والتنظير) بدون وعيٍ هو في حقيقتِهِ قتلٌ جماعيٌّ لكلِّ المناهج. وإذا كان الباحثُ يعتبرُ أنَّ المنهجَ التكامليَّ هو الخلاصُ من التقيُّد؛ فإنَّ الإشكالَ يكمنُ في الآتي: ما هو الضروريُّ في هذا المنهجِ أو ذاك؟ ما هي الممرَّات التي سأخلقُها بين التصورِ النظريِّ الذي أحملُه، وبين الملاحظاتِ التي تتوالد تباعًا وأنا أباشرُ عمليةَ تفكيكِ النَّص أو بنائِه، أو أتأمَّلُ الموضوع؟ فإذا لم يكن الباحثُ متضلِّعًا في المناهج، سابرًا لأغوارِها، عارفًا بدقائقِها، لن يفلحَ في تقديمِ وصفةٍ منهجيةٍ متكاملةٍ تجعلُ النصَّ يستريحُ على أعصابِها وتعمل على تأمينِ رحلةِ البحث. لا سبيلَ للنهوضِ بالدرسِ الأدبيِّ والنقدي ما لم تكن الأولويةُ في هذا النهوضِ للطرحِ المنهجي. إنَّ سرَّ نجاحِ طه حسين فيما شيَّده من صرح، وفيما قدَّمَه من دراساتٍ شدَّت الكثيرَ إليها، يعودُ بالأساسِ إلى المسألةِ المنهجية التي أثبتت نجاحَها في تشغيلِ عقلِه لإعادةِ قراءةِ التراثِ العربي من زوايا مختلفة. ■

إدارة بيانات الموارد البشرية الكترونيا وسيلة لاحلال المعرفة التكنولوجية المتقدمة في مناشط العمل الأكاديمي

■ تعد جامعة نزوى من المؤسسات التعليمية الرائدة في إكساب مواردها البشرية مهارات التعامل مع التكنولوجيا الذهنية والرقمية وتنميتهم تكنولوجياً من خلال توظيف تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في البيئة التدريبية لتحقيق القيمة المضافة لكل من المتدرب والعمل والمؤسسة التعليمية؛ بهدف إحلال المعرفة التكنولوجية المتقدمة في إطار متكامل مبني على إكساب مواردها المهارات التكنولوجية الحديثة، منطلقة من قناعة راسخة مفادها أن المورد البشرية تعتبر الثروة الحقيقة لأي منظمة، ولا يقل أهمية عن الموارد الأخرى؛ فعقدت الكثير من الدورات المتخصصة لموظفيها مثل: دورة إدارة بيانات الموارد البشرية الكترونياً لجميع مشرفات السكن في الجامعة؛ تمشياً مع التطورات العلمية الحديثة في مجال العمل والتي لا مثيل لها من حيث سرعتها، أو امتدادها، أو تأثيرها، والتي نتج عنها تضاعف كم المعرفة الالكترونية. الأمر الذي حتم على المنظمات التعليمية المعاصرة المداومة على التكيف مع هذه التطورات وتعديل أوضاعها ومواكبة الجديد المبتكر حتى تضمن بقاءها؛ بل أضحى لزاماً عليها أن تتبنى استراتيجية واضحة المعالم لتنمية مواردها البشرية بما يتلاءم مع هذه التطورات. وتعتبر تكنولوجيا الحاسوب من التطورات العلمية الحديثة، التي دخلت جميع ميادين الحياة؛ فمن الصعوبة بمكان تخيل منظمة صغرت أو كبرت لا تستفيد من استخدامات الحاسوب في أنشطتها ووظائفها وإجراءاتها. وتشير الدراسات الإدارية الحديثة إلى أن نجاح المنظمات المعاصرة في أدائها لمهامها ووظائفها يتوقف إلى حدٍّ كبير على استخدامها التقنيات الحديثة، مثل الحاسوب الذي أصبح يتغلغل في كافة مجالات العمل الإداري.

ومن هنا أولت هذه المنظمات اهتماماً كبيراً بتدريب مواردها البشرية على استخدام الحاسب الآلي في مجالات عديدة من الأنشطة التي تقوم بها، وتعود إلى الزيادة الكبيرة في حجم أعمالها ومسؤولياتها، وتغيير طبيعة أعمالها والحاجة إلى قوى عاملة ذات مستوى عالٍ من المهارات، وأصبح هناك إدراكٌ بأن وظائف الموارد البشرية لم تعد تقليدية بحيث تقتصر على التوظيف، والترقية، والحوافز، وغير ذلك من الوظائف التقليدية؛ بل غدت تقوم بالكثير من الوظائف الجديدة التي فرضتها البيئة المعقدة؛ فلم تعد الطرق اليدوية في إدارة الموارد البشرية مقبولة، لما تنتج منها أخطاء، وتوفر إمكانية التلاعب ببيانات الموارد البشرية من أجل الحصول على نتائج مرغوبة، إضافة إلى حاجتها إلى أماكن تخزين، ويتم العمل في الطرق التقليدية عن طريق الجهد العقلي والعضلي باستخدام الأقلام والسجلات. وعلى الرغم من الحاسب الآلي بمثابة الشريان الحيوي في المنظمات المعاصرة وخصوصاً التعليمية التي شهدت تحولاً واضحا وملموسا في الفلسفة التي تقوم عليها، إذ إن هذا التحول ليس مجرد مظهر شكلي للأساليب والمبادئ المستخدمة فيها، فنحن نجد أنفسنا محاصرين في هذا الوقت بالمتغيرات السريعة والمتلاحقة في مختلف نواحي الحياة، إلا أن الاستفادة منه على الوجه الأكمل في إدارة الموارد البشرية لم تبدأ إلا وفي وقت متأخر؛ حيث يمتاز بقدرة هائلة على معالجة كمية كبيرة من البيانات بالسرعة والدقة العاليتين، وسرعة المعالجة، والقدرة على تخزين البيانات التي تتعلق بالموارد البشرية في أصغر حيزٍ ممكن، وقدرته على إخراج المعلومات بالشكل الذي يلبي احتياجات المستفيدين منها. ■

■ دكتور محمد الجرايدة
أستاذ مساعد في الإدارة التعليمية